

الدعم الفلسطيني للقضية المغربية في عهد الحماية

د. أحمد راسم جميل خولي

جامعة النجاح الوطنية/ فلسطين

الملخص

هذه دراسة تُرمم أحد الوجوه التاريخية للعلاقات الفلسطينية المغربية في مرحلة النضال المشترك، وأعني، بالتحديد، الوجه الفلسطيني المساند للقضية المغربية في عهد الحماية، وهو ما يتجلى بأشكال تاريخية عدّة، أظهرها الدور الفلسطيني البارز في تكوين الوعي النضالي والفكري المغربي، ومساندة فلسطين للحركة الوطنية المغربية منذ بواكير نشوئها، ثمّ المكتسبات التي حقّقتها زيارة السياسي المغربي، ورئيس حزب الإصلاح الوطني بتطوان الأستاذ عبد الخالق الطريس لفلسطين ١٩٤٧. والدراسة في ذلك، إنّما تسعى إلى إعادة امتلاك المعنى الذي عاشته تلك المرحلة عبر إزالة غربة تنائيتها التاريخي عن الألفية الثالثة؛ وذلك من خلال قراءة مجموعة من الوثائق والمراسلات والمذكرات ذات الصلة بأشكال الدعم السابقة تلك. وعليه؛ تتخلل الدراسة الوصف التاريخي منهجاً لاضهار بعض مسارات العلاقات الفلسطينية المغربية في مرحلة النضال المشترك: فتنبّحت في دور فلسطين في تكوين الوعي الفكري والنضالي المغربي، أولاً، ثمّ نقرأ أوجه الدعم الفلسطيني للقضية المغربية من خلال مراسلات عبد الخالق الطريس ١٩٤٧، ثانياً.

الكلمات المفتاحية: الدعم الفلسطيني، القضية المغربية، عهد الحماية.

Palestinian support for the Moroccan cause in the era of protection

Dr. Ahmed Rasim Jamil Khouli

Al-Najah National University / Palestine

Abstract

This study attempts to investigate one of the aspects of Palestinian-Moroccan relations during the colonial period, I mean specifically the Palestinian support for the Moroccan cause in the colonial period. This is evident in many historical forms, such as the Palestinian role in the formation of Moroccan struggle and intellectual consciousness, and Palestine's support for the Moroccan national movement since its inception.as well as the achievements made by the visit of Moroccan politician Abdel Khaleq Al-Tarris to Palestine 1947.In light of the foregoing, the study tries to acquire the meaning that this stage lived through, by reading a set of relevant documents, correspondence and notes. The study first examines the Palestinian role in the formation of Moroccan struggle consciousness, then secondly examines the aspects of Palestinian support for the Moroccan cause through visiting Al-Tarris Palestine 1947 and related letters.

key words: Palestinian support, The Moroccan case, Colonial period.

تأسيس:

لا شك في أنّ البحث في مفهوم النضال المشترك بين الدول العربية في الحقبة الاستعمارية، بنحو عام، وتقصي الدور الفلسطيني في تكوين الوعي الفكري والنضالي المغربي، بنحو خاص، يتطلب الوقوف على مقدمات تمهيدية، تاريخية، وسياسية، وفكرية، واجتماعية عدّة تُبرِّز الفروقات في مفهوم الوعي القومي والوطني بين المشرق العربي والمغرب.

إنّ مواجهة المشرق العربي للدولة العثمانية النازعة للتتريك، في مرحلة أولى، وما لحقها من نشوء الدولة القطرية في عهد الاستعمار، في مرحلة ثانية، أسهم في بلورة الوعي القومي بوصفه هوية ثقافية تنزع إلى الاعتراف بالذاتية الثقافية، وإبراز وحدة اللغة والشعور والمصالح بالنسبة للشعوب العربية في مواجهة الدولة العثمانية، ثم ما فتئ أن تحوّل الوعي القومي إلى أيديولوجيا سياسية تدعو إلى وحدة الأقطار العربية المكافحة ضدّ الاستعمار. فإذا كانت القوميات تعني "بناءات ذهنية، أي جماعات متخيّلة (imagined communities)، حيث تتصوّر موضوعاتها السياسية المُضفى عليها القومية بوصفها كيانات سياسية ملموسة"^(١)، فإنّ القومية العربية كانت تتصوّر موضوعها السياسي مشروعاً وحدوياً يلمّ الأقطار العربية ضدّ الاستعمار، وضدّ الدولة القطرية أيضاً.

وبالرغم من ذلك كلّه، فقد أسهم دعم الدول الاستعمارية، وبروز الصراعات بين النخب العربية المحلية على مناطق نفوذها الخاصة، ثمّ متطلبات الكفاح ضدّ الاستعمار، في مرحلة لاحقة، في تدعيم الدولة القطرية؛ حيث ارتبط الكفاح بضرورة بناء عاطفة وطنية محلية، والدفاع عن الموطن والتراب الإقليمي، وتأكيد استقلال الدولة القطرية. ومن ثمّ؛ "إنّ تركيز الحركات الوطنية العربية أهدافها على انتزاع السيادة للدولة القطرية من السلطة الاستعمارية لم يكن يحتاج إلى بناء عاطفة وطنية محلية فحسب، لكنّه كان يستدعي أيضاً الدفاع عن مفهوم الدولة القطرية، وتأكيد شرعيتها، ولو لم يكن ذلك في وجه الدول القطرية العربية الأخرى"^(٢).

وعليه؛ يتّضح، منذ البداية، أنّ الوعي القومي في المشرق العربي نشأ في تصادم مع الوعي الوطني (الدولة القطرية)، في حين أنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمغرب، ويمكن القول: إنّ العلاقة بين القومي والوطني بالمغرب هي علاقة تجاوز، وليست علاقة تنافر، ومردّد ذلك إلى أسباب عدّة؛ فالمغرب، منذ اندحار الرومان فيه، ودخول الفاتحين العرب، ظلّ يستند إلى تاريخ

سياسي مستقل، أي أنه ليس نتيجة تقسيم استعماري، كما هي الحال في أقطار المشرق العربي. وفي ظل استمرار استقلال الكيان المغربي، نشأ وضع قوامه أن عروبة البلاد تتعزز بحماية استقلالها، وهو شعور كان يضغط على بلدان المغرب خلال المعارك الطاحنة التي خيبت ضد البرتغال وإسبان في فجر العصر الحديث، وعندما سقط المغرب في قبضة الاستعمار، لم تنشأ أيديولوجيا وحدوية في أوساط مثقفيه وقيادته؛ وذلك لأن هؤلاء لم يكونوا ينظرون إلى الوحدة إلا بصفتها وحدة الكيان المغربي، ولما كانت هذه الوحدة مفقودة بفعل الاستعمار الأجنبي (منطقة فرنسية، منطقة إسبانية، منطقة دولية)، فقد أصبح الاستقلال الوطني متلازماً مع معنى الوحدة. وهكذا؛ نشأت أيديولوجيا وطنية مدافعة عن استقلال المغرب، وعروبته في الوقت نفسه^(٣).

وتجنباً للبس؛ تقترح مجموعة من الباحثين التمييز بين الوعي القومي، بوصفه أيديولوجيا سياسية وحدوية، نشأت في المشرق العربي، والوعي العروبي، بوصفه "وعي الانتساب إلى العروبة بصفتها رابطة تاريخية، ثقافية - اجتماعية، تتجاوز إطار الانتماء إلى المجال الوطني. هذا يعني، أيضاً، أن الوعي العروبي هو وعي الهوية، خارج التحديد السياسي لها، أي بصفتها حقيقة ثقافية وتاريخية لا يغير الانقسام الكياني السياسي للبلدان العربية من حقيقة وجودها. إن الوعي العروبي يشبه، هنا، الوعي الديني الذي لا يلتزم المجال السياسي معياراً له، والذي ينقل السيادة من حقل السياسة والجغرافيا إلى حقل العقيدة والثقافة"^(٤).

هكذا؛ فلو عرفنا الحركة الوطنية بأنها حركة تُنتج الهوية الوطنية من مكونات ثقافية وتاريخية ولغوية تمنحها المعنى، ولو اتفقنا على أن "الهوية الوطنية تلتزم مجموعة مركبة من التصورات المتشابكة، والخطاطات الإدراكية، والخصائص العاطفية، والمواقف والسلوكيات المتواضع عليها، والتي يتقاسمها حاملو تلك الهوية بشكل جماعي، والتي تُرسخ فيهم عن طريق التنشئة الاجتماعية"^(٥)، لقلنا إن الوعي العروبي - وكما سيتأكد لاحقاً - قد تشكل لدى الحركة الوطنية المغربية بوصفه هوية ثقافية تتجاوز إطار الانتماء إلى المجال الوطني، وتدفع، من ثم، إلى النضال المشترك مع باقي الأقطار العربية، من جهة، وأيديولوجيا وطنية للمقاومة ضد المستعمر الأوروبي، من جهة أخرى. الأمر الذي جعل العروبة تتداخل مع الوطنية بصورة عضوية؛ فالدفاع عن عروبة البلاد، هو دفاع عن استقلال الكيان المغربي وسيادته.

وإذا لم يشهد المغرب تعارضاً بين العروبة والوطنية، فإنه لم يشهد تعارضاً بين العروبة والإسلام أيضاً، وذلك يعود إلى خصوصية ثقافية وتاريخية واجتماعية متميزة: أولاً، فقد ظلت وظيفة الإسلام بالمغرب توحيدية (فالمغاربة سنيون يعتقدون المذهب المالكي) تحفظ سيادة الدولة، حتى في المرحلة المعاصرة. فعندما حاول الاستعمار الفرنسي تنصير البربر المغاربة، وتجريدهم من النظام الشرعي الإسلامي - مع تطبيق العرف المحلي - لم يكن يسعى إلا إلى ضرب هذه الأداة التوحيدية، وذلك ما فطنت إليه الحركة الوطنية المغربية، منذ البداية، لتخوض معركتها ضد "الظهير البربري"، فلم يلجأ العرب المغاربة إلى الدفاع عن أنفسهم باللجوء إلى أيديولوجيا عروبية منفصلة عن الإسلام، بل كانوا يعدّون الأخير الحاضنة الطبيعية للعروبة، وما الفصل بينهما سوى السقوط في الفخ الذي نصبه المستعمر. ثانياً، يقدم المغرب حالة مختلفة عن المشرق بعدم وجود أقلية غير إسلامية، - مسيحية تحديداً - تفرض الرابطة القومية بديلاً من الرابطة الدينية. ثالثاً، لم يشهد المغرب صداماً مع القومية التركية كما شهدا المشرق العربي، حتى يلجأ إلى التميز بتعريف ما هو قومي لشخصيتهم. أخيراً، إذا لم يكن هناك ما يستفز عروبة المغاربة، ويدفعها إلى التصريح بنفسها مستقلة عما يربط بها من محددات كالدين والوطنية، فقد وُجد عامل تاريخي جديد ساعد على تعزيز الأيديولوجيا الإسلامية بالمغرب، وهو الاستعمار، حيث لم ينظر إليه بوصفه تحدياً قومياً - كما نُظر إليه بالمشرق بسبب وجود أقلية مسيحية - بل نُظر إليه بوصفه تحدياً وطنياً ودينياً، فإذا كان "الآخر" في المشرق يعني الغرب الاستعماري الإمبريالي، فإن "الآخر" في المغرب كان يعني الغرب المسيحي^(٦).

إنّ التفكير في العروبة من غير الإسلام كان أمراً غير مفهوم بالنسبة للمغاربة فترة العشرينيات والثلاثينيات، بل إنّ معنى العروبة لم يكن ليتحدّد في وعي المغاربة بالإسلام فحسب، وإنما يتداخل معه أيضاً. وفي هذا السياق، يقول المهدي بنونة: "العروبة ما تزال تتطابق في أذهان المغاربة مع الإسلام، لذلك لم يفرّق المغاربة بين مفهومي العروبة والإسلام، وهذا الانطباع مخالف للانطباع الذي ساد ويسود في المشرق، إذ إنّ وجود أقلية مسيحية في المشرق حال دون تطابق المفهومين، ولذا؛ نشأت فكرة "الدين لله والوطن للجميع" في المشرق، ولم يكن لها أي صدى في المغرب، وحين يفكر المغاربة في عمل عربي، كان يعني بالنسبة لهم أيضاً عملاً إسلامياً"^(٧).

إنّ الوعي العربيّ في المغرب، بوصفه وعياً تمتزج فيه العروبة بالإسلام، كان بعيداً عن فكرة إدراك التجربة القوميّة المعاصرة في المشرق، خاصة في سوريا ولبنان، بل إنّ امتزاج العروبة بالإسلام في وعي المغاربة كان يجعلهم يستغربون فكرة وجود عربيّ مسيحيّ. يقول المهدي بنونة: "لم يكن المغربيّ وقتها [أي فترة العشرينيات والثلاثينيات] يستوعب تماماً مسألتها الوطنيّة والقوميّة، كان وعي رجل الشارع يعتمد أساساً على التشبّث بالدين، والتطوّر الذي حدث فيما بعد في الذهنيّة السياسيّة، أدّى إلى أن يدرك المغاربة حقيقة الرباط القوميّ ومسألة وجود عربيّ مسيحيّ!"^(٨).

ويمكن أن نعدّ امتزاج العروبة بالإسلام أحدَ المرجعيّات الأساسيّة التي تميّز الحركة الوطنيّة المغربيّة في نضالها الوطنيّ ضدّ المستعمر الأوروبيّ، من جهة، وفي تضامنها مع القضايا العربيّة في المشرق، من جهة أخرى. وذلك ما يبدو جليّاً في مذكرات زعماء الحركة الوطنيّة المغربيّة وخطاباتهم. ففي تضامن الحركة الوطنيّة المغربيّة مع القضية الفلسطينيّة، نظر زعماء الحركة إلى تضامنهم ذاك بوصفه واجباً دينيّاً إسلاميّاً، بالدرجة الأولى. من ذلك، مثلاً، ما جاء في خطاب زعيم حزب الإصلاح الوطنيّ بالمغرب، الأستاذ عبد الخالق الطريس، في المؤتمر البرلمانيّ العربيّ الذي عُقد في القاهرة ١٩٣٨، عقب تصاعد خطوات إنشاء دولة يهوديّة في فلسطين. يقول الطريس: "إنّ عملنا لفلسطين نعتبره من أوجب الواجبات الدينيّة والدنيويّة، وأنّ تضامن المسلمين اليوم في القضية الفلسطينيّة هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها إنقاذ الموقف، ودفع كابوس الضيق والألم عن إخواننا حماة بيت المقدس، وقبله الله، وهذا التعاون هو الذي يلزم أن نظهر به في كلّ قضيّة من قضايا البلاد الإسلاميّة، لأن أوروبا لن تقيم لنا وزناً ما دامت لا تجمعنا جامعة واسعة في الشعور والعمل يمكنها أن تنفع أو تضر إن فرضت الظروف النفع أو الضرر"^(٩).

بالرغم من أنّ عنوان المؤتمر قد كان "المؤتمر البرلمانيّ العربيّ" وليس "المؤتمر البرلمانيّ الإسلاميّ" إلا أنّ ذلك لم يوجب على زعيم حزب الإصلاح الوطنيّ بالمغرب، أن يفصل العروبة عن الإسلام في خطابه، أو ينظر إلى القضية الفلسطينيّة بوصفها قضيّة قوميّة تستقرّ الشعور بالعروبة، فحسب، بل الشعور بالرابطة الإسلاميّة كذلك.

يمكن أن نعدّ العوامل التي أشرنا إليها سابقاً عواملَ بنيويّةً أسهمت في تشكيل الوعي العربيّ لدى الحركة الوطنيّة المغربيّة، بما هو وعي بالهويّة، بصفاتها حقيقة تاريخيّة وثقافيّة، خارج التحديد السياسيّ لها. وبالإضافة إلى تلك العوامل البنيويّة السابقة، ثمّ عوامل تاريخيّة وسياقيّة أخرى أسهمت في ميلاد الحركة الوطنيّة المغربيّة في صيغتها التنظيميّة والسياسيّة الحديثة. وذلك ما سنقفُ عليه من خلال البحث في دور فلسطين في تكوين الوعي الفكريّ والنضاليّ المغربيّ.

أولاً: الدور الفلسطينيّ في تكوين الوعي الفكريّ والنضاليّ المغربيّ

شهِدَت نهاية العشرينيّات وبداية الثلاثينيّات مرحلة ميلاد الحركة الوطنيّة المغربيّة في صيغتها السياسيّة والتنظيميّة الحديثة، وذلك بعد فشل الثورة المسلّحة في الرّيف والأطلس والصحراء، والاعتقاد الذي ساد لدى رواد الحركة الوطنيّة بأن لا سبيل لمقاومة المستعمر إلاّ بمواجهة أسباب التخلّف، وإجراء نهضة اقتصاديّة وعلميّة وثقافيّة. وفي هذا السياق، يتحدّث المهدي بنونة في مذكراته عن والده الحاج عبد السلام بنونة، أبي الحركة الوطنيّة المغربيّة، وما خلصَ إليه في تلك المرحلة، فيقول: "اعتقد والدي أنّ احتلال المغرب نتج عن تدهور اقتصاديّ وعلميّ وثقافيّ، وكان يرى أنّ المغرب لن يساير التطوّر العالميّ إلاّ بنهضة اقتصاديّة وعلميّة وثقافيّة، لذلك ارتأى ضرورة مقاومة السيطرة والاحتلال الأجنبيّ بمكافحة الأسباب التي قادت إلى تلك السيطرة. ولم يكن ذلك متاحاً إلاّ بوضع الأسس السليمة لاقتصاد مغربيّ وطنيّ، وبتلقين المغاربة العلوم الحديثة"^(١٠).

وفي المرحلة ذاتها، تبلورَ وعي سياسيّ جديد أكثر استشعاراً بالحاجة إلى تعميق فكرة الارتباط السياسيّ بالشرق العربيّ بصفته شكلاً جديداً من أشكال بناء الهويّة. إنّ الهويّة - كما نفهمها هنا- هي بناءٌ سياقيّ، وهي "ما تُعطينا فكرةً عمّن نكون، وعن كيفية ارتباطنا بالآخرين، وبالعالم الذي نعيشُ فيه، وهي ما تُحدّدُ الطُرُقَ (ways) التي نتعامل بها مع الآخرين الذين يشاركوننا الموقفَ نفسه، والطُرُقَ التي نختلِفُ بها عن أولئك الذين لا يشاركوننا، وفي كثير من الأحيان، يجري تمييزُ الهويّة، بشكل أكثر وضوحاً، من خلال الاختلاف"^(١١).

وفي هذا السياق، شكّلت البعثات التعليميّة المغربيّة المتّجهة نحو المشرق (مصر، وفلسطين خاصة) منذ نهاية العشرينيّات، إحدى الطرق الأساسيّة في بناء الهويّة السياسيّة والوطنيّة

الرعم الفلسطيني للقضية المغربية في عهد الحماية

و. أعمر راسم جميل خولي

والعروبية للحركة الوطنية المغربية. وكما سيتبين لاحقاً، فإن معظم رجالات الحركة الوطنية الذين قادوا العمل الوطني والكفاح ضدّ المستعمر، كانوا قد تلقوا تعليمهم، وشكّلوا وعيهم السياسي والنضالي والقومي في المشرق.

إنّ ما تسعى إلى ترميمه هذه الدراسة وتبينه - من خلال الوثائق والمذكرات - هو أنّ الدور الفلسطيني في دعم القضية المغربية لم يقتصر على الإفادة من التراث الثوري والنضالي الفلسطيني، فحسب، وإنما إعادة تشكيل الوعي الفكري والسياسي أيضاً. ومن جهة ثانية، كانت الحركة الصحفية النشطة التي شهدتها فلسطين في تلك الفترة قد تبوّأت دوراً مهماً في التعريف بالقضية المغربية في الأوساط الفلسطينية والعربية والدولية. ومن جهة ثالثة، تعدّ فلسطين إحدى طلائع الدول العربية التي رافقت الحركة الوطنية المغربية منذ بواكير ميلادها، وأحسّت بأزمة المغرب، وتضامنت معه على المستويات الوطنية والدبلوماسية، خاصة في مواجهة الظهير البربري.

منذ نهاية العشرينيات، توافدت أفواج من الطلبة المغاربة للدراسة في فلسطين، وقد كانت الأخيرة بالنسبة للمغاربة، أكثر توافقاً وانسجاماً مع شخصيتهم الدينية والعربية من مصر في تلك الفترة. وفي هذا السياق، يروي المهدي بنونة في مذكراته - وهو أحد أفراد البعثة المغربية التي درست في مدينة نابلس ١٩٢٨ - أسباب تفضيل المغاربة للدراسة في فلسطين على الدراسة في مصر، فيقول: "أودّ أن أقف قليلاً عند الأسباب التي أدت إلى اختيار فلسطين، وليس مصر، لتكون مكاناً لدراستي، أنا وزملائي في البعثة المغربية في مدينة نابلس. في أواخر العشرينيات، انتشرت في مصر، خاصة داخل الأوساط المتعلّمة، ظاهرتان، أدتا بالمغاربة للعزوف عن إرسال أبنائهم للدراسة في القاهرة: الظاهرة الأولى تمثّلت في الحنين للنصرة والثقافة الفرعونيتين، أمّا الظاهرة الثانية، فهي موجة الإلحاد التي عمّت بعض الأوساط المثقفة، وكان لكتابات الكاتب المصري سلامة موسى، والتيار الذي ارتبط به دور في ذلك"^(١٢).

يتّضح ممّا تقدّم، أنّ الوعي العروبي لدى المغاربة، بما هو وعي بالهوية الثقافية، قد كان بوصولاً في تحديد وجهة البعثة التعليمية إلى فلسطين. إنّ الإسلام الذي يمتزج بالشخصية المغربية، والشعور بالعروبة الذي يتداخل في هوية تلك الشخصية مع الشعور بالإسلام والوطنية،

فرض على رجالات الحركة الوطنية المغربية أن تدرّس أبناءها في مكان يعزّز الأركان العقديّة والفكريّة والوطنية للشخصية المغربية، لا في مكان يقوّضها.

تلقى أفراد البعثة المغربية تكوينهم، في مدرسة النجاح في نابلس، على أيدي كبار الأساتذة الوطنيين، والمفكرين القوميين الفلسطينيين، منهم: المفكر والسياسي قذري طوقان، الشاعر والأستاذ إبراهيم طوقان، المفكر القومي والسياسي أكرم زعيتر، المفكر القومي والمؤرخ والمترجم محمد عزة دروزة، الأستاذ والمفكر محمد علي دروزة، الشيخ والقاضي عبد الحميد السائح. أمّا أفراد تلك البعثة المغربية، فيروي أحد أساتذتهم، محمد عزة دروزة، في مذكراته أسماءهم، ويسجّل انطباعه عنهم. يقول: "وجاءنا في سنة ١٩٢٨ من تطوان وغيرها سبعة فتيان، هم الطيب والمهدي ولدا الحاج محمد عبد السلام بنونة، ومحمد أفنان وعبد السلام بن جلون، ومحمد عبد السلام الفاسي، ومحمد عبد السلام الخطيب، ومحمد محمد الخطيب. وجاء بعد تركي المدرسة إدريس أخو الطيب، وأحمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن جلون، وعبد الله الخطيب، ومحمد بن جالس، وعبد الكريم الفاسي، ومحمد الحسيس، وأحمد مدينة، وأحمد بن عبود، وعبد الكريم بنونة، وكانوا نشيطين جادين نظيفين، يحرصون على القيام بواجباتهم الدينية، ممّا أكسبهم تقديري، وتقدير الأساتذة ومحبتهم"^(١٣).

وفي الواقع، لم يُخطئ المستعمر الإسباني عندما وصف - في مرحلة لاحقة - البعثة التعليمية المغربية السابقة تلك لمدينة نابلس بأنها "تكوّن فيها جُلّ القادة الوطنيين الحاليين في المنطقة الخليفية"^(١٤)؛ فالطيب بنونة كان من قادة الحركة الوطنية المغربية، وسكرتير حزب الإصلاح الوطني في تطوان، وبالمثل، كان شقيقه المهدي بنونة سياسياً ودبلوماسياً، ومن قادة الحركة الوطنية المغربية، أمّا شقيقهما إدريس بنونة، فعمل سفيراً للمغرب في دمشق وبيروت لمدة ١٢ عاماً، وتولّى، لفترة، رئاسة التشريعات الملكية في الرباط، وقد تقلّد محمد الفاسي الحلفاوي منصب وزير البريد، عقب استقلال المغرب، وشغل منصب سفير المغرب في دول عدّة، وقد تولّى عبد السلام بن جلون، في مرحلة لاحقة، منصب السكرتير العام لحزب الإصلاح الوطني في تطوان، أمّا محمد عبد السلام الخطيب، فعمل أستاذاً للتاريخ والجغرافيا، ثم عمل مديراً لمدراس محمد الخامس في طنجة، وكان محمد محمد الخطيب عضواً في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال،

وعمل عبد الله الخطيب مدعيًا عامًا لمحكمة طنجة، وكان أحمد بن عبد الوهاب من شباب الحركة الوطنية المغربية في الشمال^(١٥).

واللأف في تكوين البعثة المغربية في نابلس، هو طبيعة التكوين الذي كانوا يتلقونه؛ حيث كان تكوينًا متكاملًا يصفل الشخصية، علميًا، ومعرفيًا، ودينياً، وعروبياً، ووطنياً، وأخلاقياً، وإنسانياً. وذلك ما يمكن ترميم صورته التاريخية من خلال الوثائق والمذكرات. فيذكر الأستاذ محمد عزة دروة أن من بين المحاضرات التي كان يُلقها في مدرسة النجاح: "١- الإنسان ابن عمله
٢- الترتيب ٣- كرامة النفس ٤- المزاح ٥- المسالمة ٦- الاعتراف بالجميل ٧- الإخلاص
٨- انشراح الصدر والكتابة ٩- الفحص ١٠- الانتقاد ١١- الصداقة ولا سيما في المدارس
١٢- الإنسانية ١٣- التقليد ١٤- المثل الأعلى ١٥- التكامل الاجتماعي ١٦- المرأة العربية
١٧- القرآن الكريم ١٨- مدينة العرب في الأندلس"^(١٦).

ثم إن الوعي الوطني والقومي الذي تكوّن فيه أفراد البعثة المغربية ليُتضح، أيضاً، في الأنشطة التي كانوا يشاركونها داخل المدرسة. من ذلك، مثلاً، أنه عندما اقتربت السنة الدراسية في مدرسة النجاح على الانتهاء، طلبت مجموعة من كبار الطلاب إلى الأستاذ أكرم زعيتر^(*) أن يضع لهم عهداً يوقعونه، وكان من بين الطلبة المغاربة الذين وقعوا على العهد: الطيب بنونة، وأحمد عبد الوهاب، والمهدي بنونة، ومحمد عبد الكريم بن جلون. وعند قراءة العهد، تتضح للقارئ القيم الوطنية والدينية والقومية والإنسانية التي يتضمّنها. فمن بين ما جاء فيه^(١٧):

- الغاية من الحياة التي أحيانا هي أن أكافح وأجاهد، لأنّ الحياة جهاد، والجهاد حياة.
- الحياة لا قيمة لها، إن لم تكن الحرية وارفة الظلال.
- الحرية تتمثل في الاستقلال التام الناجز وزوال كلّ سلطة أجنبية.
- كلّ مستعمر في أيّ قطر عربيّ هو عدويّ الألدّ وخصميّ الأشدّ.
- أمقت الذل والظلم والاستعباد والغطرسة والاستبداد.
- شرفي مقدّس، قد أخسر كلّ شيء إلاه.
- لا يُضيرني ألا يكون الاستقلال في أيام عمري، وإنما الذي يضرني ألا أسعى لهذا الاستقلال، وألا أوريث أبنائي وأحفادي ميراثاً قيماً من مثل الجهاد الشريف، وأيام الكفاح للحرية لا تقلّ شرفاً عن أيام الحرية.

وعندما أنهى طلاب البعثة المغربية دراستهم في مدرسة النجاح، نظمت لهم المدرسة حفلة تخرج للاحتفاء بهم، وبعودتهم إلى أهلهم في المغرب. وعند قراءة الجزء الذي خصصه الأستاذ أكرم زعيتير في مذكراته، لوصف مجريات الحفلة، تتبين لنا، بجلاء، طبيعة التربية الوطنية والقومية التي تلقاها طلاب البعثة المغربية. يقول: "كانت حفلة رائعة تلك التي دعت إليها فرقة خالد بن الوليد بنايلس، لتكريم فتیان المغرب في مدرسة النجاح، لمناسبة عزمهم على العودة إلى مراكش بعد غياب ثلاث سنوات، اكتظت قاعة جمعية الشبان المسلمين بالمدعوين. وافتتحت الحفلة بنشيد الكشاف، ومطلعه:

أقسم الكشاف في هذا الزمن أن يبيع الروح في حب الوطن^(١٨)

وفي تلك الحفلة، أنشدت فرقة خالد بن الوليد الأنشودة الأندلسية التي نظمها لهم الشاعر إبراهيم طوقان، والتي تُذكي، في مضامينها، الوعي الوطني والعروبي، وكان مطلعها^(١٩):

فتية المغرب هيا للجهاد نحن أولى الناس بالأندلس

نحن أبناء فتاهنا ابن زياد ولها ترخص غالي الأنفس

إن ما هو جدير بالملاحظة، ليس التكوين العلمي لطلاب البعثة المغربية داخل أسوار مدرسة النجاح فحسب، وإنما طبيعة نشاطهم الفكري والاجتماعي داخل المجتمع الفلسطيني، من جهة، والوعي النضالي الذي تشكل لديهم عن طريق معايشة الحوادث التي كانت تجري في فلسطين، ومحاولة نقله، من ثم، إلى بلادهم، من جهة أخرى.

ففي تلك المرحلة، شهدت فلسطين حركة ثقافية وصحفية نشطة، حيث صدر فيها بين عامي ١٩١٩ و ١٩٤٨ عدد كبير من الصحف والمجلات، بلغ ٢٤١ صحيفة، تنوعت بين ضُخفٍ سياسية، وأدبية، واقتصادية، ودينية، وأخرى متعددة الموضوعات. وتلك ظاهرة تميزت بها فلسطين من البلدان المجاورة^(٢٠).

وعليه؛ شكّلت الصحافة العربية في فلسطين وسيلة مهمة من الوسائل الجماهيرية في التعبير عن الرأي العام، وفي تشكيل الوعي الوطني والقومي للجمهور. وقد لاحظت لجنة شو التي قدمت إلى فلسطين بعد ثورة ١٩٢٩ أنّ الفلاحين الفلسطينيين كانوا أوعى سياسياً من كثير من الأوروبيين، بالرغم من نسبة الأمية التي كانت غالبية بينهم، إذ كانوا يجتمعون حول من يقرأ لهم الجرائد، ونتيجة لذلك؛ وضعت حكومة الانتداب قانوناً صارماً ضدّ الصحافة، طُبّق سنة ١٩٣٣^(٢١).

في تلك المرحلة، أفاد طلبة البعثة المغربية من الحركة الصحفية النشطة في فلسطين، عن طريق تنمية الوعي الوطني والعروبي لديهم، من جهة، والتعريف بالقضية المغربية في الأوساط الفلسطينية من خلال الكتابة في بعض الصحف التي كانت تصدر، من جهة أخرى. وفي هذا السياق، يروي المهدي بنونة في مذكراته حال الصحافة العربية في فلسطين، وأثرها على طلبة البعثة المغربية. يقول: "كانت هناك صحف كثيرة تصدر في يافا وحيفا وعكا والقدس، عدّة صحف يومية متعدّدة الاتجاهات، كلّها تكتب في القضايا الوطنية، ولعبت هذه الصحف دورًا مهمًا في بلورة الوعي الوطني لدى مجموعتنا، وزادت من إيقاد مشاعرنا الوطنية، وكانت وسيلة من الوسائل التي نمت لدينا إحساس الانتماء للأمة العربية... وأتاحت لنا الصحف الفلسطينية المجال للكتابة عن القضايا المغربية، وكنا نقوم بنشر كلّ الأخبار التي نتوصّل بها من أهلنا في المغرب، وأذكر أنّ الصحف الفلسطينية كانت أوّل صحف تتحدّث عن "الظهير البربري"... الذي كان إعلانه بمثابة الشرارة الأولى لانطلاق الحركة الوطنية المغربية"^(٢٢).

شكل الظهير (***) البربري (واسمه الأصلي الظهير المنظم لسير العدالة في المناطق ذات الأعراف البربرية، والتي لا توجد بها محاكم شرعية) الذي أصدره الاحتلال الفرنسي يوم ١٦ مايو ١٩٣٠ حدثًا فارقًا في تاريخ المغرب الحديث، حيث سعى الاحتلال، بمقتضاه، إلى التفريق بين المغاربة على أساس عرقي (عرب وبربر)، فكان، من بين ما نصّ عليه الظهير، تعطيل أحكام الشريعة الإسلامية لدى البربر، وحثّهم على الاحتكام إلى أعرافهم البربرية. فإذا كان المغاربة قبل صدور الظهير لم يكونوا يتعرفون إلى عربوتهم بمعزل عن الإسلام، فقد فصل الظهير بين مسلمين عرب ومسلمين غير عرب، الأمر دفع الحركة الوطنية المغربية إلى محاربتة منذ لحظة إعلانه في سبيل ردم الهوة التي شاء الاستعمار أن يحفرها بين العرقين. وفي هذا السياق، يؤكد محمد عابد الجابري أنّ الوعي العروبي في المشرق إذا كان قد نشأ في سياق تحدي سياسة التتريك لعروبة المشرق، فإنّ الوعي العروبي في المغرب نشأ في سياق امتداد التحدي الاستعماري الممثل في السياسة البربرية^(٢٣).

كان الفلسطينيون من أوائل المتضامنين مع المغاربة ضدّ الظهير البربري، والمندّدين بالسياسة الاستعمارية الفرنسية. وقد اتخذ تضامنهم أشكالًا عدّة، أظهرها احتضان الجمعيات المحلية القضية المغربية، وتبني العمل ضدّ الظهير البربري. بالإضافة إلى رفع الفلسطينيين

لعصبة الأمم بيانات احتجاجية تندد بالظهير البربري، وسياسات فرنسا الاستعمارية في المغرب. من ذلك، مثلاً، ما رفعه أهالي مدينة طولكرم، في الذكرى الثانية لصدور الظهير، إلى رئيس جمعية الأمم من بيان يندد بسياسة الظهير البربري، ويؤكد وحدة الشعور بالوعي العربي. فكان البيان^(٢٤):

سعادة رئيس جمعية الأمم بجنيف المحترم

لنا الشرف أن نرفع لحضرتكم غضب ونقمة المسلمين والعرب في قضاء بني صعب/ طولكرم، وأقضية فلسطين على دوام استمرار الظهير الذي أصدرته فرنسا في مراكش قبل سنتين، والذي يقضي بتنصير المسلمين المقيمين في تلك البلاد العربية الإسلامية التي يحترمها ويجلّها العرب والمسلمون، وإنّ من دواعي الأسف الشديد أن ترتفع أصوات الاحتجاج والاستنكار منذ صدور الظهير المشؤوم في يوم ١٦ مايو، ولم يصغ لكل هذه الأصوات المرتفعة التي تعرب عن شعور ملايين المسلمين والعرب. لذلك؛ فإنّ أهل هذه البلاد المجتمعين في هذا اليوم الأسود الذي صدر بمثله الظهير القاضي بتنصير إخواننا عرب مراكش يرفعون احتجاجهم الشديد على هذه الأعمال المنافية لحرية العقائد والأديان التي تحترمها جميع الدول المتمدنة، وإننا سنتابع الاحتجاج متخذين يوم ١٦ مايو يوم حزن عام للعرب والمسلمين إلى أن يلغى هذا الظهير المنافي لأبسط قواعد العدل والحق.

وفي ١٦ مايو ١٩٣٢، ذكرى صدور الظهير البربري، عقد الأستاذ أكرم زعيتر مؤتمراً شعبياً في مدينة نابلس في نادي جمعية العمال، خطب فيه مندداً بالسياسة الفرنسية، وخطب فيه كذلك السيد الطيب بنونة، وآخرون. وفي ختام المؤتمر، اقترح الأستاذ أكرم زعيتر صورة للبيان الذي سيرسلونه إلى وزير الخارجية الفرنسية، وإلى المقيم العام في الرباط، وإلى رئيس عصبة الأمم. وقد وقّع على البيان جميع رجالات نابلس، وعلمائها، وممثلي أنديةها وجمعياتها. وكان البيان^(٢٥):

بيان نابلس ضدّ الظهير بمناسبة ذكرى ١٦ مايو الذي صدر فيه الظهير البربري المؤدي إلى خروج ملايين من مسلمي البربر في بلاد المغرب من حظيرة الشريعة الإسلامية وأحكامها، يرفع الموقعون احتجاجاتهم على ذلك الظهير، وعلى الحملات التبشيرية التي تساعد السلطات في الأوساط الإسلامية في تلك البلاد، ويستنكرون بشدة هذا الأسلوب الاستعماري الفظيع الذي فيه عدوان صريح على الحريات الدينية، والتقاليد الشرعية الإسلامية، والذي

يتناقض مع القواعد المدنية الحاضرة، ويؤيدون إخوانهم المسلمين في بلاد المغرب الأقصى في طلب إلغاء الظهير، واحترام الحريات الدينية، والتقاليد الشرعية، والكف عن الحملات التبشيرية الممقوتة.

وفي السياق نفسه، كانت جمعية الشبان المسلمين، من أولى الجمعيات التي احتضنت القضية المغربية، وتبنت العمل ضد الظهير البربري في المشرق العربي. ويتحدث المهدي بنونة في مذكراته عن نشاط طلبة البعثة المغربية في فروع الجمعية في فلسطين، والتي أدرجت القضية المغربية، والكفاح ضد الظهير البربري ضمن برنامجها الوطني والعروبي. يقول: "وكان لجمعية الشبان المسلمين فروع في نابلس، وفي أهم المدن الفلسطينية، وأذكر أن زملائي المغاربة الأكبر مني سنًا درجوا على الاتصال بالجمعية، والتحدث في اجتماعاتها حول قضية المغرب...، وموضوع الظهير البربري... ولم يكتفوا بنابلس، بل ذهبوا إلى فروع الجمعية في يافا وحيفا والقدس، وتحولت مقرّ الجمعية إلى مركز نشاط مضادّ للظهير البربري"^(٢٦).

وإن كانت الصحافة العربية في فلسطين، وأشكال التضامن التي أظهرها الفلسطينيون وجمعياتهم تجاه القضية المغربية قد أثرتا في تشكيل الوعي الوطني والقومي لدى طلبة البعثة المغربية، فمما لا شك فيه، كذلك، أن التراث الثوري الفلسطيني ضدّ المستعمر البريطاني قد أثر، بشكل حاسم، في الوعي السياسي والنضالي المغربي في تلك المرحلة. يتحدث المهدي بنونة عن أثر العمل الفدائي الفلسطيني في تشكيل الوعي النضالي المغربي. يقول: "كان تأثرنا مزدوجًا بالعمل الفلسطيني الفدائي، فقد رسم لنا معالم طريق يمكن أن نسلكه حين نعود إلى المغرب، ومن جهة ثانية، خلق بيننا وبين إخوتنا الفلسطينيين رباطًا متينًا، واندماجا كاملاً في القضية... كنا نتحدث في مجالسنا الخاصة، وفي اجتماعات عامة عن القضية الفلسطينية، والإحساس الذي يلازمنا، نحن الذين درسنا في نابلس، أننا مدينون لفلسطين بتعليمنا، وثقافتنا، وبالمشاعر الوطنية التي تأججت في دواخلنا، لذلك آمنّا بأنّ علينا واجبًا يفوق ما هو مطلوب من الآخرين تجاه القضية الفلسطينية"^(٢٧).

لم يكن العمل الفدائي الفلسطيني الذي تأثر به المغاربة يقتصر على الكفاح الفلسطيني المسلح ضدّ المستعمر البريطاني، بل اتخذ أشكالاً عدّة، كالمقاومة الاجتماعية، والإضرابات،

والمقاطعة الاقتصادية، والإيمان بعدالة القضية الوطنية مهما كانت العدة متواضعة أمام جيوش المستعمر (**).

نخلص مما تقدم إلى أن الدعم الفلسطيني للقضية المغربية في تلك المرحلة، لم يقتصر على شكل الإفادة من التراث الثوري والنضالي فحسب، بل اتخذ شكل التكوين العلمي والفكري والثقافي، من جهة، والتضامن مع الحركة الوطنية المغربية، منذ بواكيرها، من خلال التنديد بالسياسة الاستعمارية الفرنسية والظهير البربري، على المستويات الاجتماعية والسياسية والإعلامية، من جهة ثانية، وتعميق الوعي العروبي لدى الحركة الوطنية المغربية بتحويله من وعي بالهوية الثقافية المشتركة إلى وعي سياسي جعل الحركة الوطنية مشدودة إلى المشرق العربي، ومرتبطة بقضاياها، من جهة ثالثة.

ثانيا: الطريس في فلسطين ١٩٤٧: أوجه الدعم الفلسطيني للقضية المغربية:

نخصص هذا الجزء من الدراسة للبحث في زيارة السياسي المغربي، ورئيس حزب الإصلاح الوطني بتطوان الأستاذ عبد الخالق الطريس لفلسطين ١٩٤٧، وأوجه الدعم التي لقيتها القضية المغربية من الفلسطينيين عقب تلك الزيارة.

تندرج زيارة الأستاذ الطريس لفلسطين ١٩٤٧ ضمن الجهود الدبلوماسية التي اضطلعت بها الأحزاب الوطنية المغربية للتعريف - في تلك المرحلة - بالقضية المغربية على المستوى الدولي لدى كل من الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، وعدد من الدول العربية. في هذا السياق التاريخي، إذن، كانت زيارة الأستاذ عبد الخالق الطريس لفلسطين في يوليو ١٩٤٧، والتي استغرقت عشرة أيام، يصفها في مراسلته الإخوانية مع الأستاذ الطيب بنونة، قبل مغادرته القدس متجهاً إلى بيروت، بقوله: "...وبعد؛ فقبل مغادرتي هذه البقاع المقدسة، أكتب لك هذه الأسطر المختصرة لأخبرك أنني على سفر. ففي الساعة الواحدة من هذا اليوم، سأترك القدس طائراً إلى بيروت بعد أن قضيت بفلسطين عشرة أيام لم أر في حياتي أياماً أكثر ازدحاماً منها، وذلك هو السر في الكتابة المختصرة إليكم"^(٢٨).

كانت الأيام التي قضاها الأستاذ الطريس في فلسطين مزدحمة بالأعمال والتنقلات والمؤتمرات والزيارات، وذلك ما يؤكد، خطابياً، شكل مراسلته الإخوانية مع الأستاذ الطيب بنونة؛ حيث يغلب عليها الطابع التلخيصي، والاكتفاء بذكر الأعمال التي أجزاها من دون

الخوض في تفاصيلها، ومن ثمّ؛ نجده، وقد جعل من التأكيد على ذلك الطابع في الكتابة، فاتحةً لمراسلاته. فبالإضافة إلى المراسلة التي أشرنا إليها سابقاً، كان الأستاذ الطريس قد كتب مراسلةً أخرى قبلها، يخبر فيها الأستاذ الطيب بنونة بالأعمال التي قام بها في الأيام الأولى من زيارته. يقول: "...وبعد؛ فإنّي أختلس من أوقاتي المليئة بالأعمال والتنقّلات لحظة قصيرة لأكتب لك فيها، وأنا ضيف هذه البلاد المقدّسة التي قابلتُنا أحسن استقبال وأكرمنا أعظم إكرام، ولضيق الوقت، أكتفي بتلخيص ما عملته أو سأعمله قريباً تاركاً الشرح والتعليق لوقت آخر"^(٢٩).

نزل الأستاذ الطريس ضيفاً على الهيئة العربيّة العليا لفلسطين، حيث تكفّلت بتكاليف إقامته في الديار الفلسطينيّة طوال مدّة نزوله فيها. زار القدس، ويافا، ونابلس، وبيت لحم، واعتذر - لضيق الوقت - عن دعوات تلقّاها لزيارة عكا، وحيفا، وغزّة، وأريحا، والخليل، وطولكرم، وصفد، ومدن أخرى غيرها^(٣٠). والجدير بالذّكر - لفهم بعض المجريات التي ستتردّ لاحقاً - أنّ زيارة الأستاذ الطريس لفلسطين كانت قد تزامنت مع إرسال الجمعية العامّة للأمم المتحدة لجنة خاصّة للبحث في وضعيّة فلسطين، وقد جوبهت تلك اللجنة بالرفض، وإضراب عامّ شمل المدن الفلسطينيّة كلّها، كانت قد دعت إليه الهيئة العربيّة العليا؛ وذلك لعدم تضمّن مهمّتها إعلان استقلال فلسطين.

في ذلك السياق التاريخي، كانت فلسطين - والقدس خاصّة - تمرّ بموجة اضطرابات حادّة، وكان إشعاعها الفكريّ والإعلاميّ والدبلوماسيّ كبيراً؛ الأمر الذي كان يعني، بالنسبة للحركة الوطنيّة المغربيّة، منفذاً خطابياً وإعلامياً ودبلوماسياً واسعاً للتعريف بالقضية المغربيّة في الأوساط الفلسطينيّة والعربيّة والدوليّة.

وفي ضوء الوثائق الخاصّة بزيارة الطريس لفلسطين، يمكن أن نوزّع المكتسبات التي حقّقتها زيارته لمدينة القدس إلى مكتسبات إعلاميّة، ودبلوماسيّة، واقتصاديّة: فعلى المستوىّ الإعلاميّ، حظيت القضية المغربيّة بدعاية واسعة في الصحافة الدوليّة، والمحليّة، والإذاعة؛ وذلك ما أتاحتها عواملٌ عدّة، أظهرها المؤتمر الصحفيّ الذي عقده الهيئة العربيّة العليا في المكتب العربيّ، وذلك في ظلّ مقاطعة اللجنة الخاصّة بالبحث في وضعيّة فلسطين، حيث حضر المؤتمر ما يزيد على أربعين صحفياً من مختلف الملل والنحل، وقد خطب الأستاذ الطريس فيه بياناً أثار فيه القضية

المغربية، وقد تُرجم إلى اللغة الانجليزية، ثم تلقى عقبه أسئلة عدّة من الوكالات الأجنبية حول القضية المغربية. وفي هذا السياق، يكتب الأستاذ الطريس لطيب بنونة عن أهمية المؤتمر: "وقد أحدث الاجتماع تأثيرا كبيرا في الأوساط السياسية المحلية والأجنبية، وقد أُخبرت بعد أن بعض مراسلي الوكالات وجهوا برقيات عن المؤتمر، فجاءتهم برقيات من وكالاتهم تستزيدهم من الأخبار، وتؤكد لهم اهتمامها بكل ما يرد في هذا الموضوع، وهذا ما يبشر بنجاح متتابع في جهادنا، ويقوي تفاؤنا، ويشجعنا على المضي في سبيلنا"^(٣١).

وإلى جانب المؤتمر الصحفي السابق، قدّم الأستاذ الطريس تصريحات عدّة للجرائد الفلسطينية، كجريدة "الوحدة"، وجريدة "الدفاع"، ومجلة "القافلة"^(٣٢)، بالإضافة إلى حديثين سجلتهما معه محطة الشرق الأدنى، حيث طلبت المحطة إليه أن يلقي محاضرتين عن "حالة التعليم في المغرب"، وأخرى عن "الحالة الاجتماعية في المغرب"^(٣٣).

إنّ اعتناء الصحافة العربية والأجنبية في فلسطين بالقضية المغربية كان يعني الكثير في تلك المرحلة؛ فالصحافة كانت وسيلة من الوسائل الجماهيرية في تعبئة الرأي العام، وضرباً من ضروب التنشئة الاجتماعية، وشكلاً من أشكال التوعية بالحس الوطني والقومي المشترك، ناهيك عن التعريف بالقضية المغربية ذاتها، وأثره على إحساس المغاربة أنفسهم. وفي هذا السياق، يتحدث المهدي بنونة في مذكراته عن أثر الصحافة في تلك المرحلة. يقول: "وكنّا نرسل صحفًا أو قصاصات من الصحف، وبكميات كبيرة إلى جنوب المغرب، وقد لا يتصور مدى تأثير هذه الصحف أو القصاصات في تعبئة الرأي العام، حين يطالع المغاربة ما يكتب عن تعسف وممارسات الاستعمار الفرنسي في المغرب، في صحف عربية أو أجنبية. هذه أشياء قد تبدو حالياً بسيطة، ولكنها في ذلك الوقت تعني الكثير! وأقلّ هذا الكثير، أنّ الناس كانت تحسّ بتجاوب العالم الخارجي مع قضية الوطنيين المغاربة"^(٣٤).

بالإضافة إلى ما تقدّم، حققت زيارة الأستاذ الطريس مكتسباً إعلامياً مهماً بالنسبة للقضية المغربية، وأعني، بالتحديد، إيجاد عنصر مغربي في المكتب العربي بالقدس، للدعاية للقضية المغربية، والتعريف بها. وحول هذه النقطة، يكتب الأستاذ الطريس في تقريره لحزب الإصلاح الوطني حول زيارته فلسطين: "نظراً لأنّ القدس من أهمّ مراكز السياسة في الشرق الأدنى، فكرنا في إيجاد عنصر من عناصرنا هناك ليستطيع أن يقوم بالدعاية لقضيتنا، والاتصال

بالصحافة الأجنبية التي تُوجّه للقدس عامّة خيرة مراسليها، والإشراف على الهيئات المغربية التي تركناها تتأسس في البلاد الفلسطينية. وقد درسنا المسألة هنا، والعقبة الكبر تخطيناها، وهي العقبة المادية، فسيكون هذا الشخص نائباً عن مكتب القاهرة في المكتب العربي، وتكون أجرته منه، ولعلّ الخيار سيقع على رشيد إدريس" (٣٥).

إن كانت المكتسبات السابقة التي حقّقها وجود الأستاذ الطريس في القدس إعلاميّة، فنّمّ مكتسبات أخرى دبلوماسية، فعلى المستوى الدبلوماسي، مكّن وجود لجنة التحقيق في القدس الأستاذ الطريس من الاتّصال برجال الصحافة، وبعض مندوبي الدّول. وإنّ لم يتواصل مع اللّجنة، مباشرة، احتراماً لشعور الفلسطينيين، ومسايرة لقرار الهيئة العربيّة العليا بمقاطعتها. يسجّل الأستاذ الطريس في تقريره لحزب الإصلاح الوطنيّ حول زيارته لفلسطين المكسب الدبلوماسيّ الذي حقّقه للتعريف بالقضية المغربية: "وقد كان الاتصال مفيداً لأننا زوّدنا الطيبين منهم بأشياء كثيرة عن قضيتنا، وهؤلاء وعدوا بالمساعدة، فمندوب الهند التزم بإطلاع حكومته على وجهة نظرنا، وأكد أنّ الهند لن تكون إلّا في صفّنا، ومندوب إيران قال إنّ دولته ستكون معنا بدون قيد ولا شرط، واستدعانا لزيارة إيران من أجل الدعاية، والاتّصال بكبراء الدولة، ومندوب يوغسلافيا أظهر استعداداً أكبر لمساعدتنا، ومندوب البيرو أبدى تعاطفاً كبيراً وصارحاً بأنّ الاعتماد يلزم أن يكون على الداخل، وأنّ المغرب إذا كان حقاً يريد حرّيته، فيلزم أن يضحّي من أجلها، أما الاعتماد على "الأونو" وحدها فقط، لا يُجدي، وعرضت عليه فكرة الدعاية في أمريكا اللاتينيّة فاستحسنها" (٣٦).

أمّا المكتسبات التي حقّقها وجود الأستاذ الطريس في القدس، على المستوى الاقتصادي، فكان من بين الشخصيات الفلسطينية التي استضافته في القدس عبد الحميد شومان، رئيس البنك العربي، وحلمي باشا رئيس مجلس إدارة بنك الأمّة العربيّة، وقد اتّفق الأستاذ الطريس معهما بوجود تأسيس فروع للبنكين في المغرب، وقد وعداه بإيفاد مندوب لدراسة الحالة، والاتّفاق مع رجال المال والأعمال المغربية (٣٧).

لم تقتصر إقامة الأستاذ الطريس في فلسطين على مدينة القدس، فحسب، وإنّما تلقّى دعوات من جهات مختلفة للتعريف بالقضية المغربية في مدن فلسطينيّة أخرى. من بينها، الدعوة التي تلقّاها من الهيئة العربيّة العليا لحضور مؤتمر الشباب في يافا، وقد قدّم الأستاذ الطريس

للمؤتمر للحديث عن القضية المغربية. يقول: "...قَدِّمْتُ للمؤتمر، فارتجلتُ خطاباً طويلاً تحدّثت فيه عن القضيتين، القضية الفلسطينية والقضية المغربية، وكانت قاعة سينما الحمراء المكتظة بما يزيد على ألفي شخص تهتَزُّ بالتصفيق والهتاف للمغرب، والملك، والأمير عبد الكريم، والجهاد الوطني، وفي نهاية المؤتمر، اتُّخذت قرارات في شأن المغرب، ورفعت تحيات للملك وعبد الكريم" (٣٨).

ومن بين الدعوات التي تلقاها الأستاذ الطريس، كذلك، دعوته لزيارة مدينة نابلس، حيث أقامت له المدينة حفلة تكريم كبيرة، يصفها في مراسلته مع الأستاذ الطيب بنونة: "وكانت حفلة ممتازة للغاية، حضرها ما بين مائتين ومائتين وخمسين من أعيان المدينة ووجهائها، ورجال الفكر، وأصاركُ أنني لم أر طول مدة إقامتي في الشرق مجموعة ممتازة كهذه مجتمعة في مكان واحد" (٣٩).

وفي أثناء تلك الزيارة، قدّم الأستاذ الطريس عرضاً دبلوماسياً للقضية المغربية في دار الإخوان المسلمين، كما شارك بالمؤتمر النسائي في نابلس، فكتب خطاباً بالنيابة عن نساء المغرب تلته الأنسة هند الفتياي (٤٠).

لم يفت تذكر أفراد البعثة المغربية التي وفدت نابلس ١٩٢٨ عن اللقاء الذي جمع الأستاذ الطريس ببعض رجالات الفكر الذين درّسوا أفراد البعثة، كالسيدّ قدري طوقان، الذي كان يتذكّر أفرادها جيداً، ويحتفظ لهم بأجمل الذكريات. وفي هذا السياق، يكتب الأستاذ الطريس في إحدى مراسلاته الإخوانية مع الأستاذ الطيب بنونة، أحد أفراد البعثة المغربية ١٩٢٨. يقول: "لا يمكنك أن تتصوّر مقدار سؤالهم عن أفراد البعثة القديمة، وعنك بالخصوص، وهم يذكرونهم أحسن ذكر، ويحملون لكم تقديراً وحبّاً، والحقّ أقول يا عزيزي إذا قلت لك إنّ الفلسطينيين جديرون بالحبّ، وإنني أشعر هنا كأنني في بيتي" (٤١).

إنّ ما توكّده زيارة الأستاذ الطريس لفلسطين ١٩٤٧ أنّ الوعي العروبي الذي تشكّل لدى الحركة الوطنية المغربية هو وعي سياسي جديد أكثر استشعاراً بالحاجة إلى تعميق فكرة الارتباط السياسي بالمشرق العربي بصفته شكلاً جديداً من أشكال بناء الهوية. إنّ ذلك الوعي السياسي الجديد هو ما يمكن استخلاصه بدءاً بالتخطيط، من المغرب، لتلك الزيارة، مروراً بمجرياتهما وأحداثها في الديار الفلسطينية، انتهاءً بكلمة الشكر التي كتبها الأستاذ الطريس لأهل فلسطين،

والتي كان مطلعها: "إنّ ما لإخواني الفلسطينيين من جميل الأخلاق، ولطيف السجايا، وفرط الكرم، وصدق الشعور بوحدة العرب، ووجوب تزاورهم، وتعاونهم، وإخائهم جعلني أحسّ عند حلولي هذه الديار أنّي حللت أرضي، وزرت أهلي، فقد لقيت حقًا من كلّ طبقات هذه الأمة الكريمة حُسن استقبال وضيافة، وفرط لُطف ورعاية، وما كنت أعرفه عن هذه الأمة الباسلة لم يزود بما شاهدته إلا متانة وقوة"^(٢).

الخاتمة

حاولت الدراسةُ دراسةً أحد الوجوه التاريخية للعلاقات الفلسطينية المغربية في مرحلة النضال المشترك، حيث سعت إلى ترميم الوجه الفلسطيني المساند للقضية المغربية في عهد الحماية، بوساطة ما توفّرت عليه من وثائق ومذكرات ومراسلات تتّصل بتلك العلاقة في تلك المرحلة. وقد خلّصت الدراسة إلى نتائج عدّة، أظهرها أنّ المؤرّخ للحركة الوطنية المغربية لا يمكنه التغاضي عن دور فلسطين في تكوين وعي الحركة النضاليّ والعروبيّ، بجعله أكثر تنظيمًا، وإحساسًا بالحاجة إلى فكرة الارتباط السياسيّ بالشرق العربيّ. من جهة، وأنّ فلسطين، من جهة ثانية، تضامنت مع الحركة الوطنية المغربية، منذ بواكيرها، من خلال البعثات التعليميّة، والتنديد بالسياسة الاستعماريّة الفرنسيّة، والظهير البربريّ، على المستويات الاجتماعيّة والسياسيّة والإعلاميّة والدبلوماسية.

الهوامش

(1)Wodak. Ruth, And others, **The discursive construction of national identity**, Edinburgh, Edinburgh University Press, (second ed), 2009, p3.

(٢) برهان، غليون، المحنة العربية: الدولة ضد الأمة، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط٤، ٢٠١٥، ص٧٥.

(٣) يُنظر: عبد الإله، بلقرين، وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧-١٩٨٦: محاولة في التاريخ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٢، ص١٧-١٨.

(٤) المرجع نفسه، ص١٧.

(5)Wodak. Ruth, And others, **The discursive construction of national identity**, P4.

(٦) يُنظر: عبد الإله، بلقزيز، وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧-١٩٨٦: محاولة في التأريخ، ص ٢٣-٢٦.

(٧) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، جدة، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ط١٩٨٩، ص ٢١-٢٢.

(٨) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ٣٥.

(٩) أنس، الفيلاي (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧-١٩٤٩: ملف وثائقي، الرباط، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠١٩، الوثيقة رقم: ٨٦، ص ٢٥٣.

(١٠) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ١٠.

(11)Baker. Paul, And Sibonile Ellece, **Key terms in discourse analysis**, New York, Continuum, 2011 P58.

(١٢) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ١٢.

(١٣) محمد عزة، دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣، المجلد الأول، ص ٥٣٧.

(١٤) محمد بن عزوز، حكيم، بعض الوثائق الخاصة بحوادث تطوان ليوم ٩ فبراير ١٩٤٨، مجلة الوثائق الوطنية، العدد: ١، تطوان، مطابع الساحل، ١٩٨٨، ص ١٣٤.

(١٥) يُنظر: المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ١٤-١٥.

(١٦) محمد عزة، دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة، المجلد الأول، ص ٥٢٢.

(*) الجدير بالذكر أنه عند مطالعة مذكرات الأستاذ أكرم زعيتر، نجدُ فيها أنّ طلاب البعثة المغربية قد ارتبطوا به، وارتبط بهم، بأوثق ما يكون من العلاقات الإخوانية الصافية، فهو لا ينفك عن الإشادة بهم وبأخلاقهم، فيصِفُ الطيب بنونة بأنه "الطالب المغربيّ النابه... ويتحلّى بروح إسلامية صادقة" ص ٢٣٤، ويصِفُ شقيقه المهدي بنونة بأنه "من أذكى من رأيتُ من الأحداث" ص ٢٩١. وعندما فُرِضت عليه الإقامة الجبرية في نابلس سنة ١٩٣٠، تلقى الأستاذ أكرم زعيتر برقيات ومراسلات من جهات عدّة، من بينها رسالة تلقّاها من أفراد البعثة المغربية. يقول: "وكان من أبلغ ما أثار في نفسي من رسائل، رسالة تلقّيها من أعضاء البعثة المغربية بمدرسة النجاح، جاء فيها: في سبيل الله، وفداء الوطن ما تكبدتم من الآلام، وتحملتكم من صنوف الاضطهاد. وإننا باسم الدين والوطنية، نحیی فيكم روح الجهاد والإخلاص، ثم نرفع لإخوتكم تهنئتنا، ونعرب لكم عن سرورنا أملين منكم أن تزدادوا ثباتًا وتضحية في سبيل الله والوطن المقدّی، والله وحده يعينكم وينصرکم ويجازيكم. البعثة المغربية

الرعم الفلسطيني للقضية المغربية في عهد الحماية

و. أعمار راسم جميل خولي

بمدرسة النجاح: الطيب بنونة، محمد الفاسي، عبد السلام بن جلون، محمد محمد الخطيب، محمد عبد السلام الخطيب، المهدي بنونة".

أكرم، زعيتر، بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٤، ص ١٥١.

(١٧) يُنظر: المصدر نفسه، ص ٥١٢-٥١٣.

(١٨) أكرم، زعيتر، بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥، ص ٢٩١.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(٢٠) يُنظر: الموسوعة الفلسطينية، الصحافة العربية:

<https://www.palestinapedia.net/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AD%D8%A7%D9%81%D8%A9->

[/D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9/?fbclid=IwAR2B94R2-cTNTeX18w4gcRun3dcF7aCit8baA2JqakmYHzOP6WK5wkFh14I](https://www.palestinapedia.net/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9/?fbclid=IwAR2B94R2-cTNTeX18w4gcRun3dcF7aCit8baA2JqakmYHzOP6WK5wkFh14I)

تاريخ الزيارة: (٢٠٢٠-٠٨-٢١).

(٢١) يُنظر، المرجع نفسه.

(٢٢) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ١٩.

(**) الظهير" هو مصطلح قانوني متداول في المغرب، يعني الصكّ أو الكتاب الذي يقوم بإصداره ملك المغرب بصفته سلطة عليا، وومثلاً أسمى للأمة، ويقابله في المشرق مصطلح "المرسوم".

(٢٣) يُنظر: محمد عابد، الجابري، يقظة الوعي العربي في المغرب: مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية، ضمن كتاب: تطور الوعي القومي في المغرب العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٦، ص ٣٧.

(٢٤) محمد معروف، تضامن العالم الإسلامي مع المغاربة ضد الظهير البربري، مجلة أمل، المجلد: ١، العدد: ١، ١٩٩٢، ص ١٥٠.

(٢٥) أكرم، زعيتر، بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥، ص ٤٠٤.

ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أنّ الظهير البربري قد جرى البحث في مخاطره، رسمياً في فلسطين، قبل إعلان بيان نابلس ضد الظهير، ففي المؤتمر الإسلامي الذي عُقد بالقدس في ١٧ ديسمبر ١٩٣١، والذي دعا إليه مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، مثل المغرب كلّ من الحاج محمد بنونة، والأستاذ محمد المكي الناصري. وبالرغم من أنّ هدف المؤتمر كان إثارة الرأي العام الإسلامي بقضية فلسطين، وتأليف جبهة إسلامية في مواجهة الصهيونية، إلّا أنّ ذلك لم يحلّ دون مناقشة قضايا العالم الإسلامي الأخرى، وفي ذلك المؤتمر، جرى الحديث عن مخاطر الظهير البربري، واستتكار السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان والمغرب.

يُنظر: المصدر نفسه، ص ٣٧٢-٣٧٥.

(٢٦) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ٣٥.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(***) من ذلك التأثير بأشكال المقاومة التي ذكرناها - على سبيل المثال لا الحصر - ما يرويه المهدي بنونة في مذكراته من تأثره بمقاطعة أهل نابلس، في تلك الفترة، لشركة الكهرباء الصهيونية "روتبرغ"، حيث رفض أهل المدينة أن تدخل الكهرباء مدينتهم، لأن تلك الشركة كانت تمتلك حق امتياز توزيع الكهرباء في كل المدن الفلسطينية، وآثروا الاعتماد على إنارة الفوانيس، وشراء المولدات الكهربائيّة، فيتحدّث عن انطباعه من تلك المقاطعة قائلاً: "انطبع في مخيلتي أن شركة "روتبرغ" شركة صهيونيّة يجب مقاطعتها، وأستطيع القول إن هذه المقاطعة عززت في نفسي الروح الوطنيّة، وروح المقاومة للاستعمار، والوجود الأجنبيّ، فقد كنت يافعاً حين عايشت الكفاح المسلّح في تطوان، ممثلاً في ثورة الريف، وفي نابلس، بدأت أستوعب أنّ الكفاح يمكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة، ويتمثّل في مقاومة اقتصادية واجتماعية وإنسانية، إلى جانب الكفاح المسلّح". المصدر نفسه، ص ١٧-١٨. وفي سياق آخر، يسجّل الانطباع الذي تكوّن لدى أفراد البعثة المغربية من ثورة البراق ١٩٢٩، والتي كانت عبارة عن اشتباكات عنيفة بين الفلسطينيين والحركة الصهيونيّة إثر تزامن حداد اليهود على خراب الهيكل مع احتفالات المسلمين بالمولد النبوي الشريف، وما قامت به حركة "بيتار" الصهيونية من استفزاز مشاعر المسلمين في القدس بهتافهم "الحائط لنا"، وإنشادهم نشيد الحركة الصهيونية؛ الأمر الذي زاد التوتر في القدس، وانتقل إلى مدن فلسطينية أخرى، ولم تستطع سلطات الانتداب البريطانيّ إيقاف الثورة إلا بمساعدة القوات البريطانيّة في مصر. يقول المهدي بنونة: "تركت ثورة البراق لدينا قناعة مفادها، أنه ليس ضرورياً أن تتوافر على جيش حتى تستطيع مواجهة جيش الاحتلال. وبدأت تشدّنا فكرة العمل الفدائيّ". المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٢٨) أنس، الفيلاي، (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الوثيقة رقم: ٩٤، ص ٢٧٤.

(٢٩) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٣، ص ٢٧٢.

(٣٠) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٧، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٣١) أنس، الفيلاي، (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الوثيقة رقم: ٨٨، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣٢) يُنظر: المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٦، ص ٢٧٩.

(٣٣) يُنظر: المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٨٨، ص ٢٥٦.

(٣٤) المهدي، بنونة، المغرب.. السنوات الحرجة، ص ٣٣.

(٣٥) أنس، الفيلاي، (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الوثيقة رقم: ٩٦، ص ٢٨١.

(٣٦) أنس، الفيلاي، (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الوثيقة رقم: ٩٦، ص ٢٨٠.

(٣٧) يُنظر: المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٦، ص ٢٨٠.

(٣٨) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٦، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣٩) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٨٨، ص ٢٥٥.

(٤٠) يُنظر: أنس، الفيلاي، (تخريج وتنسيق)، القضية المغربية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الوثيقة رقم: ٨٨، ص ٢٥٥.

(٤١) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٣، ص ٢٧٣.

(٤٢) المصدر نفسه، الوثيقة رقم: ٩٥، ص ٢٧٦.

قائمة المصادر والمراجع

١- بلقزيز، عبد الإله، وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧-١٩٨٦: محاولة في التاريخ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩٢.

٢- بنونة، المهدي، المغرب.. السنوات الحرجة، جدة، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ط ١، ١٩٨٩.

٣- الجابري، محمد عابد، يقظة الوعي العربي في المغرب: مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية، ضمن كتاب: تطور الوعي القومي في المغرب العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٦.

٤- حكيم، محمد بن عزوز، بعض الوثائق الخاصة بحوادث تطوان ليوم ٩ فبراير ١٩٤٨، مجلة الوثائق الوطنية، العدد: ١، تطوان، مطابع الساحل، ١٩٨٨.

٥- دروزة، محمد عزة، مذكرات محمد عزة دروزة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣.

٦- زعيتر، أكرم، بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٤.

٧- غليون، برهان، المحنة العربية: الدولة ضد الأمة، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط ٤، ٢٠١٥.

-
- ٨- الفيلالي، أنس (تخريج وتنسيق)، القضية المغرية في الخارج ١٩٣٧ - ١٩٤٩: ملف وثائقي، الرباط، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠١٩.
- ٩- معروف، محمد، تضامن العالم الإسلامي مع المغاربة ضد الظهير البربري، مجلة أمل، المجلد: ١، العدد: ١، ١٩٩٢.

10-Baker. Paul, And SibonileEllece, **Key terms in discourse analysis**, New York,Continum, 2011.

11-Wodak. Ruth, And others, **The discursive construction of national identity**, Edinburgh, Edinburgh University Press, (second ed), 2009.